مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 4 السنة: 2021
ص: 742 - 758 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

أسلوبية المفارقة من خلال الحقول الدّلاليّة في همزية ابن الأبّار القضاعيّ.

The Stylistic of the Paradox through the Semantic Fields in hamzia ibn al-abar al-Qada'i

* وليد رافع[1]، سليمة مدلفاف[2]
Oualid rafa [1], salima medelfef [2]
جامعة لونيسي عليّ البليدة2/ الجزائر
مخبر الدّراسات الأدبيّة والنّقديّة
Univesity lounici ali -blida2/algeria
oualidrafa91@gmail.[1] salimamedel@yahoo.fr [2]

تاريخ الإرسال:2020/11/09	تاريخ القبول:2021/04/08	تاريخ النشر: 2021/11/04

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الأبعاد الجماليّة للمفارقة من خلال الحقول الدلاليّة في همزيّة ابن الأبّار القضاعيّ، وكذا الكشف عن تجلّياتها وبيان قيمتها الفنيّة والدّلاليّة بوصفها سمة أسلوبيّة هيمنت على القصيدة موضوع الدّراسة، وقد تأسّست هذه الدراسة على إشكاليّة مركزيّة هي: ما القيمة الفنّيّة والجماليّة التي حقّقتها المفارقة الشعرية من خلال التنافرات الحاصلة في الحقول الدّلاليّة في القصيدة؟، وخلصنا إلى أنّ الخروج بالمفارقة من المفهوم البلاغي القديم إلى أفق أوسع يجعلها أداة إجرائية ذات فعالية تستجيب للمتطلبات الجمالية، والدلاليّة.

الكلمات المفتاح : مفارقة شعرية، حقول دلالية، همزية ابن الأبار.

Abstract :

This study aims to highlight the aesthetic dimensions of the poetic paradox from the semantic fields in hamziyyah bin al abari alqadae as well as revealing its manifestations and showing its artistic and semantic value as a stylistic feature that dominated the poem under study. The study was founded on a central problem: what is the artistic and aesthetic value achieved by the poetic paradox through the incongruities between semantic fields in the poem? the paradoxical departure from the old rhetorical concept to a broader horizon makes it an effective procedural instrument that responds to aesthetic and semantical requirements.

Keywords: poetic irony; semantic fields; Hamzit ibn AL-abar.

* وليد رافع:oualidrafa91@gmail.com

أوّلا: مقدّمة:

إنّ استقراء تامّا لهمزية ابن الأبّار القضاعيّ، يكشف للدّارس عن ثراء قصيدته بالملامح الأسلوبيّة التي تسهم في الكشف عن مواطن الجمال، وتكامل الأدوات الشعريّة، وعمق الرؤية التي هيّأت للشاعر أن يحقق إضافة نوعيّة لنتاجه الشعريّ المتميّز، غير أنّنا سنسلط الضوء على ملمح أسلوبي محدّد وهو جماليّة المفارقة التي ستتغيّا الدراسة الكشف عن حدودها وتجلياتها في القصيدة،ووظائفها الجماليّة وأبعادها الدلالية، لكن جمالية المفارقة لا تعني بحال من الأحوال المطابقة أو المقابلة بالمفهوم البلاغي القديم، بل تتجاوزه إلى التضاد الحاصل بين الحقول الدلالية.

إشكالية البحث: لقد تأسس البحث على عدة أسئلة هي:

1. ما القيمة الفنية والجماليّة التي حققتها المفارقة الشّعريّة في القصيدة؟.
2. هل اتّكأ الشاعر ابن الأبّار القضاعي على الحقول الدلاليّة اتّكاء جماليّا؟.
3. هل شكّل اختيار الحقول الدّلاليّة بتنوّعاتها بؤرا دلاليّة في تشكيل النّص الشّعريّ؟.

أهمّية البحث: تأتي أهمية هذا البحث من أهمّية نظرية الحقول الدّلاليّة، وكيفيّة تعالق الألفاظ مع بعضها البعض سواء بالترادف، أو بالتّضادّ.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى الوقوف على تجلي المفارقة الشّعريّة من خلال الحقول الدّلاليّة، كظاهرة أسلوبيّة لها حضورها وتجلّياتها في النّصوص الشّعريّة، وتقسيم هذه الحقول، كل حقل على حدة، محاولين كشف السّمات الأسلوبيّة الاختياريّة لألفاظ الحقل الواحد لتتعدّاه إلى الحقول الأخرى، مستبطنين معانيها ودلالاتها.

منهج البحث: المنهج الذي يقوم عليه البحث هو المنهج الأسلوبيّ، حيث يعمد هذا البحث إلى استقراء قصيدة الهمزية من أجل الوقوف على الألفاظ المتشاكلة فيما بينها مكوّنة حقلا دلاليّا.

ثانيا: المفارقة وأهميتها:

أ)مفهوم المفارقة:

المفارقة في مفهومها اللغوي هي من مادة (فرق)، فقد ورد في لسان العرب أنّ الفرق خلاف الجمع، وفرقه يفرقه فرقا، والتفرق والافتراق سواء، ومنهم من يجعل التفرق للأبدان والافتراق في الكلام، يقال فرقت بين الكلامين فافترقا، وفرقت بين الرجلين فتفرقا، فرق الشيء مفارقة وفراقا: باينه، والاسم الفرقة، وتفارق القوم: فارط بعضهم بعضا، ويقال أوقفت فلانا على مفارق الحديث، أي على وجوهه،

وفرق لي رأي، أي بدا لي وظهر"[1]، وجاء في كتاب أساس البلاغة لجار الله الزمخشري" وفرق لي الطريق فروقا وانفرق انفراقا إذا اتّجه لك طريقان فاستبان ما يجب سلوكه منهما، وطريق أفرق: بيّن، وضمّ تفاريق متاعه، أي ما تفرّق منه"[2]، وفي القاموس المحيط: فرق بينهما فرقا وفرقانا بالضّمّ: فُصل"[3].

والمفارقة اصطلاحا فهي أسلوب بلاغيّ يقوم على التضاد، يبرز فيه المعنى الخفيّ في تضادّ ملموس مع المعنى الظّاهريّ معتمدا على المفارقة اللّفظيّة، أو مفارقة الموقف، أو السّياق، وهذا أمر يحتاج إلى مجهود لغويّ، وكدّ ذهنيّ، وتأمّل عميق للوصول إلى التّعارض، وكشف دلالاته بين المعنى الظاهر والمعنى الخفيّ الّذي يتضمّنه النّصّ وفضاءاته"[4]، ويرى علي عشري زايد أنّ المفارقة تقوم على استنكار الاختلاف والتفاوت بين أوضاع كان من شأنها أن تتّفق وتتماثل، أو بتعبير مقابل تقوم على افتراض ضرورة الاتفاق في واقعة الاختلاف"[5]، أمّا الدكتور حسني عبد الجليل فيرى أنّ" المفارقة هي جوهر الحياة، وتقوم على إدراك حقيقة أنّ العالم من جوهره ينطوي على تضادّ، وانتهى إلى أنّ المفارقة نظرة إلى الحياة تدرك أنّ الخبرة عرضة غلى تفسيرات شتى لا يكون واحدا منها هو الصحيح، وتدرك أنّ وجود التنافرات معا جزء لا يتجزأ من بنية الوجود"[6]، ويقول ناصر شبانة فيما يخصّ ظهور المفارقة كمصطلح في حقل النقد:" فكان لابدّ من انفصال آخر وحاسم هذه المرّة، ينأى باللّغة تماما عن التبعية للمعنى، بل قد يصل الأمر بها إلى أن تكون نقيضا مباشرا للمعنى، في بعض الأحوال، وهو ما طفق يبرز في مصطلحات ومفاهيم كالمفارقة"، ويعرّفها محمد العبد" المنطوق يرمي إلى معنى آخر، يحدّد الموقف التبليغيّ، وهو معنى مناقض عادة لهذا المعنى العرفي الحرفيّ"[7]،وهناك مفهوم آخر للدكتورة نبيلة إبراهيم:" إنها لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين: صانع المفارقة وقارئها، على نحو يقدّم فيه صانع المفارقة النّصّ بطريقة تستثير القارئ، وتدعوه إلى رفض معناه الحرفيّ، وذلك لصالح المعنى الخفيّ الذي غالبا ما يكون المعنى الضّدّ وهو في أصناء ذلك يجعل اللغة ترتطم ببعضها البعض، بحيث لا يهدأ للقارئ بالا، إلّا بعد أن يصل إلى المعنى الذي يرتضيه"[8].

وهناك مصطلح آخر يدخل ضمن المفارقة وهو التضادّ، وسنكتفي بما قاله المحدثون عنه لأنه يتداخل مع مفهوم الحقول الدلالية، يستخدم التضاد عند المحدثين" في الدلالة على عكس المعنى فالكلمات المقابلة(*opposite*) هي(*antonymes*)، وغالبا ما يظن أنّ التضاد عكس الترادف لكن وضع الاثنين مختلف تماما، فاللغة ليس بها حاجة واقعية إلى المترادفات الحقيقية، لكن التضاد ملمح مطرد، وطبيعي للغاية للغة ما، وبمكن تحديده بدقة تامة"[9]، ومن هنا يتّضح أنّ التّضاد عند المحدثين يعني وجود لفظين يختلفان لفظا ويتضّادان معنى، والخاصية الأساسية التي ترتبط بين هاتين الكلمتين المتضادتين هي

اشتراكهما في ملمح دلالي آخر يوجد في إحداهما ولا يوجد في الكلمة الأخرى"[10]،ويتقاطع مصطلح التضاد مع ما يسميه عزّ الدين إسماعيل بالتفكير الدرامي،فيقول:" إنّ التفكير الدرامي هو ذلك اللون من التفكير الذي لا يسير في اتجاه واحد، وإنما يأخذ دائما في الاعتبار أنّ كل فكرة تقابلها فكرة، أنّ كل ظاهر يختفي وراءه باطن، وأنّ التناقضات وإن كانت سلبية في ذاتها، فإنّ تبادل الحركة بينها يخلق الشيء الموجب، ومن ثمّ كانت الحياة نفسها إيجابا يستفيد من هذه الحركة المتبادلة بين المتناقضات"[11]، وعليه فهنا تبرز القيمة الرئيسة للتضاد، وذلك لقدرته على التجاوز" التقابل في العبارة الشعرية الدرامية ليس مجرد تقابل ألفاظ، وإنّما بصفة أساسية تقابل أبعاد نفسية، فالألفاظ ذات التأثير الدرامي هي مجرد ثغرات أو منافذ يطل منها الإنسان على أجزاء من عالم الشاعر الداخليّ"[12]، ومن كل هذا يتضح لنا جليّا وظيفة التضاد، فهو"من أكثر الأساليب قدرة على إقامة علاقة جدلية بين النصّ من جهة والقارئ من جهة أخرى.

ب)أنواع المفارقة:

قسّم النّقاد المفارقة إلى أنواع وأشكال عدّة، وقد جاءت هذه الأنواع مختلفة من ناقد إلى آخر حسب اعتبارات ووجهات النظر أثناء التقسيم، وسنكتفي بتقسيم متولي عبد السميع:

– **لفظية:** هي التي يكون فيها المعنى الظاهريّ واضحا، لا يتّسم بالغموض وله قوّة دلاليّة مؤثّرة، ويتوافق في هذا مع محمد العبد الذي يعرفها:" هي شكل من أشكال القول، يساق فيه معنى ما في حين يقصد منه معنى آخر، يخالف غالبا المعنى السطحيّ الظاهر"[13].

– **سياقيّة:** فيعتمد على حسّ الشاعر الّذي يرى الأحداث من حوله، وتصويرها بمنظور المفارقة، ويترك للمراقب(الإنسان) تحليلها واستنباط أبعادها الفلسفيّة والشّعوريّة، وكشف خيوط تعارضها، ومن هنا تختلف المفارقة اللّفظية عن السياقيّة في أنّ الأولى تعتمد في كشف حقيقتها أوّلا على صاحب المفارقة(الشاعر)، أمّا المفارقة السّياقيّة، فإنّها تعتمد على المراقب والقارئ في استنباط وكشف التّعارض بين المعنى الظّاهريّ والخفيّ"[14].

ج)وظيفة المفارقة الشعرية:

إنّنا الآن نسأل السؤال ذاته الذي سأله محمد العبد في كتابه المفارقة القرآنية:" لماذا نستخدم التعبيرات استخداما مفارقيا، على الرغم من إمكانية قول ما نعنيه تماما وحرفيّا"[15]،ولكن نجيب نستخدم التعبيرات استخداما مفارقيا، لأنّ اللذة الجمالية لا تتحقق إلا بمطاردة المعنى،فيلاحظ أنّ المعنى الذي أعاد

القارئ إنتاجه في المفارقة،سيمسي أكثر إقناعا وتأثيرا مما لو قدمه الكاتب لقارئه على طبق من لغة، فالإنسان يحب ما يكتشفه ويؤثره ويقتنع به، بل يسعى لاقتناع الآخرين به"[16]، ولهذا فللمفارقة وظيفة مهمة في الأدب بشكل عام والشعر بشكل خاصّ، فهي في الشعر تتجاوز حدود الفطنة وشدّ الانتباه إلى إيجاد التوتر الدلالي في القصيدة عبر التضاد في الأشياء، الذي يتولد فقط من خلال الكلمات المثيرة والمروعة في السياق، بل عبر إمكانات الشاعر أو الأديب البارعة في توظيف مفردات اللغة العادية واليومية، وكلما اشتدّ التضاد ازدادت حدة المفارقة"[17]، فالمعنى يظل ناقصا ما لم يكتمل بنظيره، ولا يتحقق المعنى إلا بنقيضه، وهكذا يتحول مبدأ التضاد من مبدأ وجوديّ، إلى مبدأ فكري مارّا من خلال اللغة ليدخل في حركة جدلية تحقق الوحدة والتماسك"[18]، إلى جانب هذا فإنّ توظيف المفارقة تحقق أغراضا ثلاثة: فهي تباغت القارئ أو المتلقي وبهذا تثير انتباهه،وهي كذلك تحفزه على التفكير والتأمل في موضوع المفارقة، فيتمتع انفعاليا،لأنها تمنحه حسّا قويّا ومقدرة على اكتشاف علاقات خفية في النّصّ"[19]، كذلك تكمن قيمة المفارقة في سعيها الدؤوب إلى تأجيل المغزى، مما يتيح للمعنى الحرفي البقاء، وهذا بدوره يفضي إلى متوالية لانهائية من التفسيرات للمفارقة"[20]، فعندما تحدث المخالفة تغدو ذات فاعلية أساسية يتلقفها المتلقي عبر كسر السياق، والخروج عليه، والتضاد الذي يقوم على علاقات الكلمة ضمن النص عنصر من عناصر الشعرية التي تجمع بين المبدع والمتلقي"[21]، وفي هذا إشارة لافتة لدور القارئ في تأويل المفارقة وإعطائها الدلالات المناسبة، فحالما تصل الشيفرة إلى القارئ (المتلقي) فإنه يشرع بالبحث عن المفتاح السريّ الذي يمكّنه من تفكيكها، إذا يدرك بوعيه أنّ صاحب المفارقة(المبدع) قد خبّأه في مكان قريب، ليشرع بعدها في إعادة إنتاج ما يقرأ ليصل إلى الفكرة كما كانت عليه قبيل إدخالها في آلة المفارقة"، إذا فدور القارئ لا يقلّ أهمية على المبدع صاحب المفارقة، ولكن على القارئ أو المتلقي أن يكون على وعي تامّ بأنّ العمل الأدبي بصفة عامة، وأعمال المفارقة لا تحاكي الواقع، أو تمثّله بالمطابقة الحرفية، وإنّما هي كشف وإضاءة لجانب من جوانب الحياة التي يختلط بعضها ببعض، ويتضارب، وتستخدم المفارقة في نهاية المطاف عندما تفشل كل وسائل الإقناع، وتستهلك كل الحجج، ويخفق النقد الموضوعي، فعندئذ تظلّ المفارقة هي الطريق الوحيد المفتوح أمام الاختيار"[22].

ثالثا:مفهوم الحقل الدّلاليّ وأبعاده الدلاليّة:

أ)مفهوم الحقل الدلاليّ:

الحقل الدلالي أو الحقل المعجميّ، هو مصطلح يطلق على مجموعة من الكلمات التي ترتبط دلالتها وتشترك جميعا في التعبير عن المعنى العامّ، تحت الألفاظ يجمعها، فمصطلح لون في اللغة العربية يضم مجموعة من الألفاظ نحو: أبيض، أسود، أحمر، وغيرها"[23].

ويعرّفه جورج مونان قائلا: إنّه مجموعة من الوحدات المعجميّة التي تشتمل على مفاهيم تندرج تحت مفهوم عامّ يحدّد الحقل"[24]، أي مجموع الكلمات التي تترابط فيما بينها من حيث المعاني، يجمعها مفهوم عامّ، ولا تُفهم إلّا في ضوئه.

ونختم بتعريف أولمان للحقل الدّلاليّ: هو قطاع متكامل من المادّة اللّغويّة يعبّر عن مجال معين من الخبرة"[25].

ب)نظريّة الحقول الدّلاليّة المفهوم والوظيفة:

قد ظلّ سائدا أنّ اللّغة في القسم المعجمي ليست سوى ركام من الكلمات المتناثرة، لا توجد صلة تربط بين الواحدة والأخرى من الناحية الدلاليّة"[26]، لكنّ بعض الباحثين استطاعوا أن يثبتوا عكس ذلك، كما أن هذه الصّلات لا تخصّ مجموعة من الألفاظ الّتي يمكن إدراجها ضمن العلاقات الدلالية من قبيل الترادف، والاشتراك اللفظي وغيرها، بل تشمل جميع الألفاظ التي تنتمي إلى مجموعة دلالية واحدة، كذلك قد ترتبط هذه المجموعة الدلالية مع مجموعة دلالية أخرى، بحيث تكون هذه الكلمات سلسلة من الحلقات المتّصلة حيث ترتبط كل واحدة بالأخرى من الناحية المفهوميّة"[27].

وتقوم هذه النظرية على أنّه لفهم معنى كلمة معينة يتوجب فهم مجموعة الكلمات الأخرى المتصلة دلاليّا بالكلمة المقصودة، ويهدف هذا التحليل الدلاليّ للحقول المراد دراستها واستجلاء معانيها، والوقوف على الأهداف التي تحققها هذه اللفظة داخل المعمار النّصّيّ إلى جمع الألفاظ التي تخصّ حقلا معينا، والكشف عن صلة هذه الألفاظ بعضها ببعض، وصلاتها بالمصطلح العامّ"[28].

ووظيفة نظرية الحقول الدلالية أنّه يتمّ رصد" تداعي دلالة بعض الكلمات التي تنتمي بعضها إلى بعض اشتقاقيا للتعبير عن مجال واحد من المسميات، أو المفاهيم بحيث يتشكل حقل، أو دائرة من الكلمات تغطّي مجالا لغويا واحدا يتصل فيه معنى الكلمة المعينة بمعنى كلمة أو كلمات أخرى قريبة منها الدلالة على ذلك المعنى، مما يساعد على تحديد معنى الكلمة من خلال معرفة الحقل الذي تنتمي إليه"[29]، كما أنها تسهم في تحديد وظيفة الألفاظ وقيمتها في أداء المعنى، التي اتّكأ عليها الشاعر، كما أنها تساعد القارئ على إماطة اللّثام على رؤية الشاعر للعالم وثقافته ومرجعياته، فالحقل الدلالي خصيصة أسلوبيّة

يسم بها الشاعر إنتاجه، ويتميّز عن غيره من الشعراء، فالحقل الدلالي هو الشكل النهائي لما يتلفظ به الشاعر، ويصبح لكل شاعر حقله الدلالي، أو خطاب معجمه الخاصّ به، وبذلك يصبح الحقل الدلالي للتفريق بين أنواع الخطاب، لأنّ ذلك يعدّ سرّا من أسرار أسلوبية عميقة في النصّ الشعري، نستطيع بها الاقتراب من دلالة الخطاب الجزئية والكليّة.

رابعا:تجليات المفارقة في همزية ابن الأبار وأبعادها الجمالية:

يعتبر تشكل المعجم أمر بالغ التعقيد، إذ تتضافر فيه عدّة بنى نفسية واجتماعيّة ورؤى إيديولوجيّة، وعليه يكون النظر إلى المعجم الشعريّ من الزاوية الدلالية أمرا وجيها يستمد مشروعيته من المنهجية التي تتحكم فيه"، فلكل أديب عالمه الخاصّ به يستقي منه مفرداته وتعابيره، وابن الأبّار القضاعي ليس استثناء في الأمر، فله معجمه الخاصّ به ينبغي الوقوف عليه، فالحقول الدلالية بدورها تقوم بعملية انزياحية عن بقية الحقول التي يمتلكها شعراء آخرون، لتكون الميزة الأسلوبية تحت ظلالها باعتبارها مجموعة من الكلمات التي ترتبط دلالتها بمفهوم محدّد أو قطاع متكامل من المادّة اللغوية تعبر عن مجال معيّن من الخبرة والاختصاص"[30]

إنّ المعجم الشعريّ ما هو إلا وسيلة للتمييز بين أنواع الخطابات وبين اللغات والشعراء، ولكنّ هذا المعجم يكون منتقى من كلمات يرى الدارس- المحلل- أنها هي مفاتيح النصّ، أو محاوره التي يدور عليها"[31]، هذه المفاتيح النصّية اتسعت مجالاتها كثيرا، فصارت تدلّ على الأصوات أحيانا،وهذا ما وجدناه في سينية البحتري، وقد تدلّ في نصوص أخرى على عبارات بأكملها، ويمكن أن تكون صورة فنيّة"[32].

وقد وجدنا قصيدة الهمزيّة لابن الأبّار القضاعي تتوافر على حقول عدة، الحقل الديني، حقل العزّة والنصر، حقل الذلّ والهوان، حقل التفاؤل والتشاؤم، ونستطيع توزيع الكلمات كالأتي

أ)الحقل الديني:

وهو من الحقول التي انتشرت في القصيدة منذ مطلعها حتى آخر نفس فيها، ويمكن تقسيم هذا الحقل الديني، إلى حقلين فرعيين متباينين هما:

-حقل الإيمان: هنا تكرّرت مجموعة من الألفاظ الإيمانيّة وفق الإيديولوجيّة الإسلاميّة: الدين الحنيف، الشهداء، الإسلام، الهدى، المؤمنين، الجهاد، الإمام، التوحيد، وقد تجلت في الأبيات الآتية:

أشفى على طرف الحياة ذماؤها فاستبق للدين الحنيف ذماءها

طافت بطائفة الهدى آمالها ترجو بيحيى المرتضى إحياءها[33]

يا حسرتي لعقائل معقولة سئم الهدى نحو الضلال هداءها[34]

واستدع طائفة الإمام لغزوها تسبق إلى أمثالها استدعاءها[35]

نقصت بأهل الشرك من أطرافها فاستحفظوا بالمؤمنين بقاءها

الجهاد فلا تفتكم ساحة ساوت بها أحياؤها شهداءها

بشرى لأندلس تحبّ لقاءه ويحبّ في ذات الإله لقاءها[36]

–حقل الكفر:

وهو حقل يدخل في صراع مع الحقل الأوّل داخل القصيدة، فهذا ما يسمى بالمفارقة الشعريّة، فيحاول الشاعر أن يصف الآخر بعلامات مضادّة مستمدّة من الشريعة، ومن هذه الألفاظ: الكفر، طواغيت، أهل الشرك، الضلال، النواقيس، وتجلت في الأبيات الآتية:

نادتك أندلس فلبّ نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها[37]

بأبي مدراس كالطلول دوراس نسخت نواقيس الصليب نداءها

ومصانع كسف الضلال صباحها فيخاله الرائي إليه مساءها

عجبا لأهل النّار حلّوا جنّة منها تمدّ عليهم أفياءها

أما العلوج فقد أحالوا حالها فمن المطيق علاجها وشفاءها

أهوى إليها بالمكاره جارح للكفر كرّه ماءها وهواءها[38]

نقصت بأهل الشرك من أطرافها فاستحفظوا بالمؤمنين بقاءها[39]

–دلالة حقل الإيمان والكفر:

أوّل دلالة تطالعنا هي أنّ الشاعر له معرفة دينية عميقة، لأنّه كان فقيها قبل أن يكون شاعرا، وأما الدلالة الثانية فهي أن الصراع القائم بين المسلمين والصلبيين ليس صراعا من أجل أراض وقلاع

وقصور، وإنما صراع دين وتاريخ وهوية،ويشير أيضا أنّ ضياع الأندلس كان نتيجة ضياع الدّين، وأنّ العرب والمسلمين لن يعودوا إلى ماضيهم العزيز، إلا إذا عادوا إلى تعاليم هذا الدين الحنيف، فجيوش الصليب التي تهاجم الإسلام قبل الأندلس لا تدفع إلا بالاعتصام بالعروة الوثقى،فبقاء الأندلس واسترجاع ما احتله الصليبيون من مدائن لا يكون إلا بقوة إيمان وعقيدة، وأنّ الفاتحين من قبلهم لم يُمكّن لهم إلا حين أشربوا التعاليم الإسلامية في قلوبهم، ولم تغن كثرة الأندلسيين شيئا حين أضاعوا تلك الكثرة المعنوية وهي الإيمان، لذا فقد لاحظنا انتقالا للصراع الإيديولوجي المحتدم بين الأطراف إلى داخل النصّ الأدبي، مما يجعل القارئ يعايش هذه الحرب المضادّة داخل الشبكة اللغوية عن طريق اللغة المجموعة من المفردات المضادة بينها لتحقيق الوظيفة الجمالية، ولهذا نجد الدكتور ناصر شبانة يقول" ومن غير الحكمة الغضّ من شأن الأحداث التي تحققها المفارقة أثناء تحققها في العمل الأدبي، وقد تكون تحصيل الحاصل، غير أنّ المفارقة لم توجد فجأة في ساح الأدب بقدر ما كانت صدى لوقوعها في الحياة، فإذا وقفنا على أهداف وجودها في الحياة كانت أهدافها في الأدب متحقّقة تلقائيا"[40].

ب)حقل العزّة والهوان:

– حقل العزة والنصر:

لجأ الشاعر في هذا الحقل إلى اختيار كلمات تستنهض الهمم، وترفع سقف الطلب في النصر، كما نجد أيضا أوصاف العزّة ملتصقة بالمرسل إليه، فإن محل رجاء هذا الشاعر في هذا الملك الحفصي هو هذه الصفات والأخلاق، وتمثلت فيما يلي: الرجاء، السراء، الآمال، النصر، الربيع، رش، العزم، المؤيد، العلياء، البأس، السخاء، كرام، سما، سامي الذوائب، الصبر، صالحات، الجود، البركة، الصوارم، الفخر، العزة، طيّب الخلائق، الشكر، حمى، راس، راسخ، وكان حضورها في الأبيات الآتية:

أرسل جوارحها تجئك بصيدها صيدا وناد لطحنها أرحاءها

أولوا الجزيرة نصرة، إن العدا تبغي على أقطارها استيلاءها[41]

صدق الرواة المخبرون بأنه يشفي ضناها أو يعيد رواءها

إن دوّخ العرب الصعاب مقادة وأبى عليها أن تطيع إباءها

فكأن بفيلقه العرمرم فالقا هام الأعاجم ناسفا أرجاءها

لا يعدم الزمن انتصار مؤيد تتسوغ الدنيا به سراءها
ملك أمد النيرات بنوره وأفادها لألاؤه لألاءها
خضعت جبابرة الملوك لعزّه ونضت بكف صغارها خيلاءها
أبقى أبو حفص إمارته له فسما إليها حاملا أعباءها[42]
تقع الجلائل وهو راس وراسخ فيها يوقع للسعود جلاءها[43]

استعمل الشاعر هذا الحقل الدلالي من الألفاظ الدالة على العزّة والنصر، مع استعمال صفات الملك الحفصيّ، وهو بهذا يعزف على وتر حساس جدّا وهو مدح الملك الحفصي لبرمجته عصبيا للنهوض من أجل تدارك أمر الأندلس، فهو انزاح من المدح كوسيلة من أجل التكسب إلى وسيلة لخدمة الشأن العام، حيث يحاول دغدغة عواطف ممدوحه، وذلك بإشباع رغباته النفسية من مجد وعزة ونصر.

–حقل الذل الهوان:

في هذا الحقل نجد سلبية مفرطة لحال الأندلس ومآلها، وينشطر هذا الحقل في أدائه الدلاليّ إلى شطرين فرعيين هما:

الحقل الدّال على الذّل وسقوط الأندلس:

وهو ما نجده في جميع الكلمات ك،الأرزاء، الفواجع، البكاء، ونجد حضورها في الأبيات الآتية:

واشدد بجلبك جرد خيلك أزرها تردد على أعقابها أرزاءها
دفعوا لأبكار الخطوب وعونها فهم الغداة يصابرون عناءها
وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى سبل الضراعة يسلكون سواءها
رش أيها المولى الرحيم جناحها واعقد بأريشة النجاح رشاءها
أشفى على طرف الحياة ذماؤها فاستبق للدين الحنيف ذماءها[44]
إيه بلنسة وفي ذكراك ما يمري الشؤون دماءها لا ماءها[45]

إن الشاعر اختار هذه الكلمات ليصف الأندلس التي آلت إليها، وكأنّ في نبرة خطابه لوما لأهل الأندلس، لأنهم أضاعوا الأندلس واتبعوا الشّهوات، فكان هذا مصيرهم وبئس المصير، فضربت عليهم الذّلة والمسكنة، وتماروا بالنّذر فسلط الله عليهم من لا يخافه ولا يرحمهم، نزع منهم البأس على أعدائهم ونُزعت الرهبة منهم، هذا إضافة إلى إرسال رسائل مشفرة للملك الحفصي بأنه هو المخلّص مخلّص الأندلس وأهلها من هذا الذل والهوان الذي حيق بهم، فكأنه يصفه بالعبقري، لأنّ العبقريّ يتدارك الأمور قبل وقوعها.

-الحقل الدّال على عزّ الآخر/ الصليبيين:

وفيه ألفاظ ذلّ للأنا وعزّ وانتصار للآخر، ومثال ذلك يظهر في قول الشاعر:

وتنكرت لهم اللّيالي فاقتضت سرّاءها وقضتهم ضرّاءها[46]

كيف السبيل إلى احتلال معاهد شبّ الأعاجم دونها هيجاءها

بأبي مدراس كالطلول دوارس نسخت نواقيس الصليب نداءها

ومصانع كسف الضلال صباحها فيخاله الرائي إليه مساءها

عجبا لأهل النار حلّوا جنة منها تمدّ عليهم أفياءها

أما العلوج فقد أحالوا حالها فمن المطيق علاجها وشفاءها[47].

ولهذا كله دلالة، فالشاعر لا يهذر بل يتكلم ليرسل دلالة، فكأنه يقول: إنّ الله جلّت حكمته جعل المسلمين والصّلبيين بالنسبة لقيادة الأندلس التي كانت حاضرة الدنيا خاصّة، والمجتمع الإنساني عامة مثل كفتي ميزان، إن رجحت إحداهما لابدّ أن ترتفع الأخرى، فإذا كان المؤمنون بالله مستمسكين بدينهم، يشدون عليه بالنواجذ، صادقين في إيمانهم به، جعل القيادة إليهم وملّكهم مقاليد الحضارة، وإذا تحوّل المسلمون فضيعوا شرع الله ومنهاجه، ولم تخلص أفئدتهم وشغلتهم النّعم عن شكر المنعم جعل الله قيادة الأرض في يد أي أمّة من الأمم، ثم سلّطها عليهم بالقهر والتمزيق والإذلال، وهذا ما حدث لأهل الأندلس، ونلاحظ أنّ المفارقة كانت في أعلى تجلياتها من خلال التضاد الحاصل بين حقلي ذل أهل الأندلس وعزة الصلبيين، فقد صدق نعمان عبد السميع متولي إذ يقول:" إنّ المفارقة جوهر الأدب لأنّها تقوم على الصراع بين الأشياء: الحياة والموت، التصور المألوف، الفاني والأزلي، ولأنّها تعكس رؤية المزدوجة

في الحياة، فهي نظرة فلسفية للوجود من حولنا قبل أن تكون أسلوبا بلاغيّا"[48]، فهذان الحقلان أرايانا رؤية الحياة المزدوجة، فبعدما كانت الأندلس حاضرة الدنيا، فيه مزدحم الأقدام، فيها الحلّ والعقد في شؤون العباد،صارت خرابا، وأهلها ما بين مقتول ومتشرد، فيما تضبح شوكة الصلبيين مستقوية، بعدما كانوا مشتتين متناحرين فيما بينهم، فاجتمعوا لا لحبّ بعضهم، بل بكرههم للمسلمين،كذلك هذه المفارقة دلالة على التغير والاستحالة، فقد تتقلب أحداث الزمان، وتصطخب فيه صروف الأيام، ويداول فيها الدّهر بين شطرين، فهو مرّة صفاء لايشوبه كدر، و أمن لا يخالطه حذر، وهو في الأخرى همّ ونصب وبلاء وذل، ولهذا فشعرية المفارقة تتمثل في قدرة الشاعر على الجمع بين المتناقضات والمقابلة بينها، على نحو يبرز إحساسه بسطوتها، ويشرك المتلقي في حالة التوتر التي تغشى رؤيته وأبعاد الصراع الذي يعيشه، سواء خارج النصّ أو داخله.

ج)حقل التفاؤل واليأس:

إنّ بنية المعجم اللغوي الذي تمثل في المجالات الدلالية العامة تدفعنا إلى عرض الألفاظ التي شكلت ثنائيات لغوية ذات دلالة، وهي بمجملها قائمة على السلب والإيجاب، وقد قمنا بعملية مسح لقصيدة الهمزية لنعدّ الألفاظ الدّالة على التفاؤل واليأس ونحصيها:

–حقل التفاؤل:

لقد وجدنا أنّ القصيدة تشكلت من ألفاظ كانت ترمز وتوحي بالتفاؤل في استدراك أمر الأندلس، ومنها : احبها، الفتح القريب، بقاءها، رجاءها، آمالها، ترجو.

وتمثل ذلك في قول الشاعر:

صرخت بدعوتك العلية فاحبها من عاطفتك ما يقي حوباءها

تلك الجزيرة لا بقاء لهم إذا لم يضمن الفتح القريب بقاءها

رش أيها المولى الرحيم جناحها واعقد بأرشية النجاة رشاءها

أشفى على طرف الحياة ذماؤها فاستبق للدين الحنيف ذماءها

حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد قصرت عليك نداءها ورجاءها[49]

طافت بطائفة الهدى آمالها ترجو بيحيى المرتضى إحياءها[50]

مولاي هاك معادة أنباءها لتنيل منك سعادة أبناءها[51]

بشرى لأندلس تحب لقاءه ويحب في ذات الإله لقاءها[52]

لقد أكثر الشاعر من استعمال مفردات ذات دلالة على التفاؤل الإيجابي لإيمانه الراسخ ويقينه الذي لا يخالطه شك من خروج الأندلس من مأزقها التي هي واقعة فيه ولو بعد حين، فقد قيل: ما فاتنا إدراكه لا يفوتنا استدراكه، فالأندلس التي توالت عليها الأرزاء والنكبات، وانهارت قواها وأشرفت على الهلاك، لم تعد قادرة على غير تلك الصرخات المستنجدة المستغيثة الممزوجة بالتفاؤل والاستبشار، فلم يبق لهم من ينقذهم من هذا الضياع والتيه والفناء غير ذلك المولى الرحيم الذي اتجهت إليه الأنظار وتعلقت به الآمال فهو وحده من يستطيع انتشال الأندلس من براثن الروم،فيجعلهم في أرض الله أعز نفرا وأكثر نفيرا،فالأندلس تحتاج إلى قائد من طراز علوي سماوي الروح يشيع إشراقه غسقها ويرفع الدولة إلى مسارح النجوم، فحسب الشاعر كرة مرقوبة تأتي الروم وأتباعهم فتقضي عليهم أجمعين، فتفاؤل الشاعر ليس في تخليص بلنسة وحدها من براثن الصلبيين فقط، بل يرجو أن تكون نهايتهم هناك ومن ثم تخليص الأندلس قاطبة من قبضتهم التي أحكموها على معظم المدن الأندلسية.

–حقل اليأس:

لقد بثت ألفاظ اليأس وتوزعت في أرجاء جسد القصيدة: يا حسرتي، إيه بلنسية، كيف السبيل، الأسى، وتظهر في قول الشاعر:

يا حسرتي لعقائل معقولة سئم الهدى نحو الضلال هداءها

إيه بلنسية وفي ذكراك ما يمري الشئون دماءها لا ماءها

كيف السبيل إلى احتلال معاهد شبّ الأعاجم دونها هيجاءها[53]

كفى أسى أن الفواجع جمة فمتى يقاوم أسوها أسواءها[54]

وتنكرت لهم الليالي فاقتضت سراءها وقضتهم ضراءها

دفعوا لأبكار الخطوب وعونها فهم الغداة يصابرون عناءها[55].

وباستمرار السقوط والتردّي في الأندلس وتزايد صرخات وأنّات المستغثين، فالشاعر باستعماله لألفاظ دالة على اليأس والتشاؤم، يصف مبلغ ما وصل إليه أهلها من اليأس والقنوط، ولكنهم رغم ذلك يلجؤون للاستصراخ والاستغاثة، لذا نرى الشاعر يجعل حقلا آخر معادلا له ومكافئا لحقل اليأس، وقد كشف هذا التطابق والتضاد، أو المفارقة ذلك التباين والصراع النفسي لدى الشاعر بين عاطفتين وجدانيتين التفاؤل واليأس،وحين يتكئ ابن الأبار على مبدإ المفارقة في الحقول الدلالية،فإنه يضع الفكر عن طريق اللغة في مقابل الوجود، وفي هذا تقول ميادة كامل إسبر:" إنّ التضاد هو شكل من أشكال الاختلاف، وهو المبدأ الناظم للوجود، ومن ثمّ فهو المبدأ الناظم للفكر، وبوصفه شكلا من أشكال الاختلاف، فهو ينتظم اللغة أيضا، الفكر يدرك ظواهر الوجود بطريق الاختلاف والتباين، وكلما اتسع الاختلاف وتباعدت الهوة بين الظاهرتين كان إدراك الفكر لهما أوضح وأعمق، وأكثر دقة، وعندما يتحول التضاد من مبدإ عقليّ إلى مبدإ شعري يصبح طريقة في وعي الوجود ويتحول إلى لغة تكشف عن التباين في الوجود"[56]، ومانريد أن نخلص إليه أنّ المفارقة بين حقل التفاؤل والياس عمقت في وعي المتلقي إحساس الشاعر المتأزم بوطأة الصراع الداخلي الذي يحياه، وذلك الإلحاح على المكاشفة ينبئ عن مساحة التوتر المتزايدة، لكن هذه المفارقة لا تعني بحال من الأحوال فصاما، أو تناقضا يعانيه الشاعر بقدر ما يكشف عن تحولات حادّة في رؤية الشاعر لمصير الأندلس.

خامسا:خاتمة:

لقد تبين لنا بعد الدراسة، أنّ المفارقة الشعريةّ بمفهومها العميق قد كوّن عنصرا من عناصر البناء الفنيّ للنصّ الشعريّ التي وظّفها الشاعر ابن الأبّار في همزيته على نحو متّسق وغايتَه في إعادة اكتشاف الوجود ومعاينته، وتوضيح رؤيته لثنائيّات ضدّيّة كصراع الأديان والعزّ الذّل، واليأس والتفاؤل، ونظرته القلقة للقادم ومستقبل الأندلس المجهول، ويمكن القول: إنّ تعميق مفهوم المفارقة يتجاوز بنا الحدود الشكلية للمفارقة القائمة على الجمع بين المفردات والتراكيب المتضادّة بوصفها محسنا بديعيا إلى شحنها بطاقة تعبيريّة قادرة على ابتكار الصور والمعاني التي تتكامل بثنائياتها الضّدّية.

ـ كما تجلّت جماليّة المفارقة في الهمزيّة موضع الدراسة من خلال الدلالات الجديدة التي اكتسبتها الحقول الدلاليّة المستندة إلى شبكة العلاقات الخفيّة للمعاني المتقابلة والإيحاءات المثيرة والصور المتناقضة، والرؤى المغايرة، لتؤدي وظيفة جمالية أسهمت في الكشف عن جوانب التّوتر النفسي لدى الشاعر، والحالة

الشعورية المتناقضة داخله، إضافة أنه أعطى للقارئ مساحة ليشترك في هذا التوتر، وتعميق إحساسه بالجدليات التي يثيرها.

هوامش:

[1]ابن منظور: جمال الدين مكرم بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط6، 1997، مج 10، مادة فرق، ص299.

[2]الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، تح : محمد باسل عيون السود،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1997م،ص20.

[3]الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح : مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط3، 2005م، ص916.

[4]نعمان عبد السميع متولي، المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم،دسوق، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع،ط2014،1م،ص14.

[5]عليّ العشريّ زايد،عن بناء القصيدة العربيّة الحديثة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط5، 2008م، ص89.

[6]حسني عبد الجليل يوسف، المفارقة في شعر عدي بن زيد العبادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، د ط، 2005م،ص4.

[7]محمد العبد، المفارقة القرآنية،دراسة في بنية الدلالة،مكتبة الآداب، القاهرة، مصر،ط2، 2006م، ص15.

[8]نبيلة إبراهيم، فنّ القصّ في النظرية والتطبيق، مكتبة الغريب، القاهرة، ط1، 1995م، ص198.

[9]ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشر، دار الغريب للنشر، مصر، ط2، 1997م، ص72.

[10]أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة،ط5، 1997م، ص100.

[11]إسماعيل عز الدين، الشعر العربي المعاصر،قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، 2007م، ص131و279.

[12]المرجع نفسه،ص291.

[13]نعمان عبد السميع متولي، المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم، مرجع سابق،ص19.

[14]المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[15]محمد العبد، المفارقة القرآنية، مرجع سابق، ص73.

[16]ناصر شبانة، المفارقة في الشعر الحديث، أمل دنقل، سعدي يوسف، ومحمود درويش نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2002م،ص76.

[17]نعمان عبد السميع متولي، المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم، مرجع سابق،ص 14.

[18]ميادة كامل إسبر، شعرية أبي تمام، منشورات الهيئة العامة للكتاب، سوريا، ط1، 2011م، ص106.107.

[19]ينظر:عدنان خالد عبد الله، النقد التطبيقي التحليلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،ط1، 1986م، ص27.

[20]عاصم محمد أمين بني عامر، لغة الضادّ في شعر أمل دنقل، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2005م، ص48.

[21]محمد خليل الخلايلية، بنائية اللغة الشعرية عند الهذليين، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2004م، ص109.

[22]سيزا قاسم، المفارقة في القصّ العربي المعاصر،مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر،مج2،ع2، 1982م، ص143،144.

[23]أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مرجع سابق،ص79.

[24]المرجع نفسه،ص28..

[25]المرجع نفسه،ص79.

[26]ينظر: ريمون الطحان، الألسنية العربية، دار الكتاب اللبناني للنشر والتوزيع، لبنان،ط2، 1981،ص91.

[27]ينظر: فندريس، اللغة،تر: عبد الحميد الدواضي ومحمد القصاص، مطبعة البيان العربيّ، القاهرة، د ط، 1950، ص333.

[28]ينظر أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مرجع سابق، ص80.

[29]نهر هادي، الأساس في فقه اللغة وأرومتها، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص269.

[30]ينظر : أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مرجع سابق،ص79.

[31]محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، إستراتجيّة التناص، المركز الثقافي، المغرب،ط3،1992م، ص58.

[32]ينظر: يوسف أبو العدوس، الأسلوبية" رؤية وتطبيق"، دار المسيرة، عمان، ط5،2010م، ص158.

[33]ابن الابار الديوان، تح عبد السلام هراس، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1986، ص35.

[34]الديوان،ص36.

[35]الديوان، ص37

[36]الديوان،ص38

[37]الديوان،ص35.

[38]الديوان،ص36.

[39]الديوان،ص38.

[40]ناصر شبانة، المفارقة في الشعر الحديث، مرجع سابق، ص77.

[41]الديوان،ص37.

[42]الديوان،ص39.

[43]الديوان،ص40.

[44]الديوان،ص35.

[45]الديوان،ص36.

[46]الديوان،ص35.

[47]الديوان،ص36.

[48]نعمان عبد السميع متولي، المفارقة اللغوية، مرجع السابق،ص17.

[49]الديوان،ص35.

[50]الديوان،ص36.

[51]الديوان،ص37.

[52]الديوان،ص38.

[53]الديوان،ص36.

[54]الديوان،ص37.

[55]الديوان،ص35.

[56]ميادة كامل إسبر، شعرية أبي تمام،مرجع سابق،ص106.